

تداعيات الوجود الفرنسي على النشاط التجاري في غرب أفريقيا خلال القرن التاسع عشر الميلادي

حسن سكران

باحث دكتوراه تاريخ العلاقات المغربية الإفريقية
جامعة سيدي محمد بن عبد الله، سايس
فاس – المملكة المغربية



ملخص

يسعى البحث حول الوجود الفرنسي في غرب أفريقيا خلال القرن التاسع عشر الميلادي، من خلال هذه الدراسة، الكشف ولو بصورة بسيرة عن نشاط هذه الدولة الأوروبية، في الحياة الاقتصادية السائدة في المجال الأفريقي المدروس، حيث إن المتبع لهذا الوجود في مصادر التاريخ، ومختلف كتب الرحلات الأجنبية الأوروبية، سيقف عند نشاطه وأثره وتداعياته، وهي المسألة التي حاولنا إثارتها في هذه الدراسة، لفتح شهية النيش أكثر في مستقبل ما استجد في الموضوع. وقد انطلقنا في الكشف عن هذه التداعيات من محطتين، الأولى: ناقشنا فيها النشاط التجاري لفرنسا في غرب أفريقيا، كونها الدولة الأوروبية التي تحكمت في ذلك الجزء المهم من القارة، وخلصنا في مناقشتنا تلك، إلى استفادة فرنسا من السلع التي تزخر بها غرب أفريقيا، في مقابل إغراقها بالسلع المنتجة في أوروبا، هذا في حين استغلت في ذلك المسالك التجارية والسواحل الأطلسية، المساهمة في دينامية وتقل السلع والمواد. أما المحطة الثانية، سعينا فيها إلى تحليل السياقات التي جعلت فرنسا تواصل مشروعها في الغرب الأفريقي، ومن ذلك محاولة إرساء قواعد التجارة الأوروبية وإحداث تغييرات في التنظيمات الاقتصادية المحلية، بإدخال البنيات المتطورة، القائمة على المبادلات التجارية العالمية، واستنزاف الثروات الطبيعية والبشرية. ورسمنا معالم هذه الدراسة انطلاقاً من إشكالية أساسية، تتمثل في البحث في الوجود الفرنسي في غرب أفريقيا، وأثره على الجانب التجاري خلال القرن التاسع عشر الميلادي، وذلك من خلال مقارنة تاريخية، توضح المظاهر والعوامل المفسرة للوجود الفرنسي، إلى جانب آلية التحليل والتفسير لمجمل الإشكالات البحثية المعالجة. ومن خلال ما سبق، نتوصل إلى أن تداعيات هذا الوجود الفرنسي، لم يبق حبيس الزمن البحثي المدروس، ذلك أنها تجاوزت الفترة الاستعمارية واستنزاف الثروات، إلى ما بعد الاستقلال، وهي فترة عاشت على وقع التحولات الفكرية، المحددة بالأساس في التعارضات بين الفكر الكولونيالي والديكولونيالي، ويمكن تمثله في التعارض ما بين المدرسة الاستعمارية والمدرسة الأفريقية الأنثروبولوجية.

كلمات مفتاحية:

أفريقيا الغربية؛ الوجود الفرنسي؛ القرن التاسع الميلادي؛ التجارة؛ الاقتصاد.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ١٤ يوليو ٢٠٢٣
تاريخ قبول النشر: ٢٩ أغسطس ٢٠٢٣



معرف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.341155

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

حسن سكران، "تداعيات الوجود الفرنسي على النشاط التجاري في غرب أفريقيا خلال القرن التاسع عشر الميلادي". - دورية كان التاريخية. - السنة السادسة عشرة- العدد الواحد والستون، سبتمبر ٢٠٢٣. ص ١٣٢ - ١٤٠.



Twitter: <http://twitter.com/kanhistorique>
Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>
Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>

Corresponding author: hassansgran3@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

نشر هذا المقال في دورية كان التاريخية 4.0 Attribution International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made. للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع. للأغراض تجارية أو ربحية.

مُقَدِّمَةٌ

للتنظيمات التجارية، مقابل سعي فرنسا لإحداث سوق تجارية تتلاءم وتطورها الاقتصادي، إلى جانب نقلها المبادلات التجارية إلى الساحل الأطلسي، بما يتماشى مع قوة أسطولها البحري، وتجاوز المسالك التجارية البرية الصحراوية، الرابطة بين مجموعة من الحواضر شمالاً وجنوباً.

وعلى أساس منطلقنا هذا، نسعى لتحليل ومناقشة الحضور الاقتصادي الفرنسي في غرب أفريقيا، وتداعياته على التنظيمات المحلية الخاصة بالقطاع التجاري، وذلك من خلال مسارين مباشرين، الأول نتساءل فيه عن النشاط التجاري الفرنسي في غرب أفريقيا خلال القرن التاسع عشر الميلادي، والثاني نبحث فيه عن انعكاس الوجود الفرنسي على الاقتصاد التجاري في غرب أفريقيا خلال القرن التاسع عشر الميلادي.

أولاً: النشاط التجاري الفرنسي في غرب أفريقيا خلال القرن التاسع عشر الميلادي

منذ القرن السادس عشر الميلادي، أثارت أفريقيا الغربية انتباه العديد من الدول الأوروبية، بفضل ما وفرته من مكاسب مهمة في تكوين الثروة، أساسها تجارة الحواضر الصحراوية، وما قدمته هذه التجارة من سلع أساسية من قبيل الملح والذهب والعبيد، وتزامن هذا الاهتمام الأوروبي مع سياق الكشوفات الجغرافية الهادفة إلى خلق الثروة وتجميع المواد الأولية، وتبوع الاقتصاد الداخلي الذي كان في السابق قائماً على الإقطاع وامتلاك الأراضي الفلاحية.

وتطور هذا الاهتمام الأوروبي بتجارة أفريقيا الغربية مع توالي السنوات والعقود، حتى اتخذ شكل المبادلات والاستغلال المباشر لمصادر المواد الأساس، حيث أسهم في ذلك تجارها المستقرون في المنطقة، وتعاملهم المباشر مع التجار الأفارقة، مستغلين الحماية المقدمة لهم من طرف الزوج السوداني، وحجم ما يصلهم من الإمدادات والسلع من أوروبا^(٢)، إلى جانب الأرضية المناسبة للقيام بالمعاملات التجارية، من أسواق ومخازن المواد، والمسالك التجارية الرابطة بين مراكز الحواضر

تقدم دراسة علاقة أوروبا بأفريقيا خلال القرن التاسع عشر الميلادي، أفاقاً واعدة في فهم النظرة الأوروبية المركزية تجاه القارة السمراء، وهي نظرة تنهل من حجم ما كونه من معرفة بجوانب اجتماعية وثقافية واقتصادية وسياسية، عبر مستكشفيها وضباطها العسكريين، وعلى أساس تلك المعرفة، وجهت أنظارها لاستغلال الفضاء الأفريقي الغني بثرواته الطبيعية والبشرية، ويهمننا من هذا الفضاء مجال غرب أفريقيا، باعتباره مجالاً تاريخياً واستراتيجياً على مستوى ما عرفه من العلاقات، منذ الاستيطان البشري القديم والهجرات المتعددة المشارب، عبر تاريخه الممتد، وفي المقابل، تمكنا دراسة علاقة أوروبا بأفريقيا، من استجلاء مكانة أفريقيا، وموقعها من هذه العلاقة، وهي التي تسعى للحفاظ على خصوصيتها، المستمدة من واقعها التاريخي والجغرافي.

وهكذا، فإن استقصاء جوانب من هذه العلاقة، يستدعي بالأساس نظرة دقيقة ومسحا عميقا، لمصادر متعددة، أجنبية ومحلية، وفي مقامنا هذا، فإننا وقفنا عند مختلف تلکم المصادر، وسعينا إلى دراستها دراسة تقوم على فهم العلاقة، ومظاهر التواجد الأوروبي الفرنسي، وتجلياته في القطاع التجاري، عبر ما عرفه الجانبان، من مبادلات تجارية غير متكافئة في غالب الأوقات، تميل فيها الكفة للأوروبيين، وتزيد من فرص ثرائهم، وتطوير بلدانهم، ما أدى بتضرر التنظيمات المحلية الغرب أفريقية، والصحراوية.

واهتمامنا بهذا الموضوع، ينهل من السياق الراهن، عبر ما تعيشه بلدان غرب أفريقيا من ظروف داخلية، على مستويات اجتماعية واقتصادية وسياسية وأمنية، آخرها الانقلاب على الحكم في بلاد الحوسة^(١)، ودولة الغابون، وتراجع الأدوار الفرنسية في المنطقة وتوتر علاقاتها مع دعاة الفكر التحرري من تبعات الاستعمار الذي لحق أفريقيا، وهو ما يندرج ضمن النقاش المحتدم ما بين الفكر الكولونيالي والديكولونيالي، أي الفكر الاستعماري والفكر الرفض له، وهو نقاش يهمننا في هذا الموضوع، في جانب الصراع بين الخصوصية المحلية

الدقيق واللحم والنبيد^(٧)، كما حظي الرحالة الأوروبيون في وجباتهم بكمية مهمة من الكحول في الاستقبالات المخصصة لهم عند الزعامات المحلية، كالرحالة فيليكس دييوا (F.Dubois) الذي قدمت له من أحد أبناء إحدى الزعامات المحلية في المنطقة، وجبة تضمنت نبيدا أحمر الشامبانيا^(٨)، وفي سياق مماثل، وصلت شحنة فيها مجموعة من السلع، من قبيل الخبز وزجاجات من النبيذ الأحمر والأبيض إلى تنبكت حيث مستقرها، وموجهة للجاليات الأوروبية القاطنة هناك^(٩).

فضلاً عن الكحول، صرفت فرنسا الأثواب القطنية والأقمشة التي تصنعها المصانع البريطانية والفرنسية والإسبانية وغيرها، لما تدره من أرباح في مجال يعيش على النذرة على مستوى الإنتاج، واستغلت نشاط تجارها بمدن المغرب مثل: فاس لتصدير أقمشة صوفية^(١٠)، شكلت في ما بعد سلعة مهمة تصدر نحو حاضرة تنبكت، وأرسلتها إلى مناطق جنوبية عبر وسطاءها، إسهاما منها في تقليص مصارف النقل البحري^(١١)، وبهذا شكل القطن مورداً أساسياً للتجار الساعين لمراكمة الأرباح، لخصائصة الجوهرية في السوق السوداني^(١٢)، وفي السياق نفسه توصلت سوق جني الأفريقية^(١٣)، بملابس أوروبية لتصديرها إلى باقي الأسواق^(١٤)، رغم سعرها المرتفع فإنها تجد إقبالا من طرف الأهالي، وبالإضافة إلى الأقمشة القطنية، هنالك أيضا البنادق الفرنسية والعنبر المزيّف والكبريت^(١٥)، والملاءات والشاي الأخضر من الصين والسكر والشموع والتمور والتبغ^(١٦)، زيادة على ماتم تصنيعه في بلجيكا وإنجلترا^(١٧)، وبهذا أمكننا القول على أن سلع فرنسا أثرت في السوق الغرب أفريقية بالخصوص، ودخلت ضمن المستودعات التجارية التبكتية وغيرها، هدفاً في تسخيرها للتجارة الإقليمية أو استهلاكها لدى الأهالي.

التجارية، ومراسي السواحل الأطلسية، الغربية والجنوبية. وهكذا، وبموازاة مع ما لحق التجارة الغرب أفريقية من تأثيرات فرنسية، سعت هذه الأخيرة لإحداث خط مباشر من السواحل المتوسطية عبر الجزائر إلى تنبكت، لما في ذلك من تغييب لتجارة العبور، والوساطة التجارية لحواضر ومراسي البلاد المغربية، وتحويل السلع إلى مدنها على غرار تحويلات الفول السوداني إلى المصانع الكبيرة في بوردو ومرسيليا^(٣)، وبهذا برزت منافسة شديدة من طرف التجار الفرنسيين ضد التجار المغاربة، تمثلت في إغراق السوق السودانية بسلع بلدانهم، حيث يوجد في سان لوي وتنبكت تجار فرنسيين يجلبون المنتجات الأوروبية إلى هناك^(٤)، ذلك أن تجليات منافستهم تلك قد سبقها استغرابهم من إصرار القوافل العابرة للصحراء على مواصلة نشاطها في عهد التوسع الأوروبي، على طول السواحل^(٥)، وفي ما يلي السلع التي حولها التجار الفرنسيون، نحو بلدانهم خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي.

جدول رقم (١)

السلع المصدرة نحو فرنسا نهاية القرن ١٩^(٦)

السلع	قيمتها (بالفرنك)	تاريخ التصدير
الصمغ	138000	1880
ريش النعام	288000	1880
الذهب	36000	1880
بذور الكتان	27000	1880
جلود	135000	1881
أسماك محفوظة	171000	1881

إلى جانب هذه السلع، نجد فرنسا قد صدرت مختلف المواد الأخرى، مستغلة في ذلك حاجة الأفارقة إليها على غرار الكحول؛ إذ ليس من السهولة بمكان إيجاد مشروب كحولي مستورد من السوق الدولية، نظرا لنذرته واحتكاره من قبل الخاصة من الحكام، وبه حظيت السلعة باهتمام منقطع النظير من طرف السكان البسطاء، فالمتواجد منه يأتي من طرف إرساليات الأوروبيين لجالياتهم في غرب أفريقيا، التي يتطلب استقرارها توافر بعض الحاجيات الضرورية، مثل

ثانياً: انعكاس الوجود الفرنسي على الاقتصاد التجاري في غرب أفريقيا خلال القرن التاسع عشر الميلادي

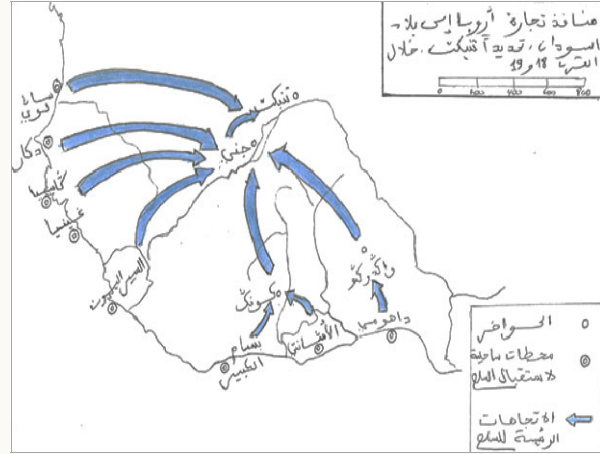
تراكمت الدراسات المنجزة حول نظرة الأوربي لمجال أفريقيا^(١٩)، حيث تمثل جانباً من ذات المستعمر الذي سعى لإضفاء المشروعية، والتأثير على المجال والمجتمع، وصاحب المشروع الإصلاحي لعدة نواقص، كما زعم والتي تحتاج إلى التقويم، وما يتلاءم مع رزمة قوانينه والحدثة التي عكستها ثقافته^(٢٠).

إن موقع أفريقيا الغربية كمجال غني بالثروات الطبيعية والبشرية، وتوافره على نهري النيجر والسنغال، إلى جانب المشروع التوسعي الامبريالي في المنطقة، كلها عوامل لفهم الوجود الأوربي، وعلى وجه التحديد الفرنسي، وتأثيره على التجارة انطلاقاً من وسائله وآلياته الاستعمارية وعلاقاته الاقتصادية، واستثمار سياق الثورة الصناعية، الهادفة إلى السيطرة على منابع المواد الأولية في العالم، ولم يتأت ذلك إلا عبر تحول النمط الاقتصادي من الفلاحة إلى التجارة في المجال الأفريقي المدروس، الشيء الذي أسهم في بروز التثاقف بين التجار الوافدين والسكان المحليين^(٢١)، وهكذا، سعت البلدان الأوروبية عبر سياستها الاستعمارية التوسعية على إرغام الحواضر الأفريقية، على تغيير أنماطها الاقتصادية والاجتماعية القائمة على خصوصية المجال والمجتمع، ومن تلكم الأنماط تغيير كل أنواع المعاملات التجارية المحلية، وتجاوز التجارة البرية إلى البحرية، إلى جانب خلق سوق لتصريف منتجاتها والانتفاع بثرواتها من ذهب وملح وعبيد.

ولكي نفهم أشكال الحضور القوي لفرنسا، نقتبس عبارة ترجمناها: "الاستعمار بالنسبة لفرنسا مسألة حياة أو موت"^(٢٢)؛ إذ إن السياق العالمي خلال القرن التاسع عشر الميلادي، الذي شهد ثورة اقتصادية وتحولات اجتماعية داخليا وخارجيا، والتنافس الأوربي على أفريقيا، جعل فرنسا تبحث لها عن مكان ضمن خريطة المستعمرين.

خريطة رقم (١)

منافذ تجارة أوروبا في بلاد السودان خلال القرنين ١٨ و ١٩م^(١٨)



أمكننا ملاحظة هذه الخريطة، الموجهة للوعي بمسارات التجارة الأوروبية في أفريقيا الغربية، وعليه نقرأ مفاتها، الذي يتضمن إشارة إلى الحواضر الرئيسية، التي تستقبل السلع الداخلية والخارجية، وهما حاضرتي تيبكت وجني، حيث ترتبطان مع المحطات الساحلية (الداهومي والأشانتي والسيراليون وسان لوي..)، وذلك عبر المسالك الصحراوية كما تشير الاتجاهات باللون الأزرق.

إن موقع المحطات الساحلية، جعلها تضطلع بأدوار استراتيجية، أهمها قريبا من الساحل الأطلسي، حيث تستقبل مختلف السلع المستوردة من الخارج، في المقابل، تصدر ما تزخر به غرب أفريقيا من مواد أساس، كما رأينا في ما سبق ذكره، وهكذا، فإن دراسة النشاط التجاري لفرنسا في غرب أفريقيا، يجعلنا نقف عند محطة مهمة من محطات الحضور الاقتصادي الأوربي في القارة الأفريقية، أساسه التطلع إلى خلق سوق أوربية لتصريف الإنتاج، إلى جانب جلب المواد الأولية والثروات المعدنية والبشرية، الكفيلة لخلق ازدهار صناعي وتجاري، فرضه السياق الداخلي، فضلاً عن السعي إلى وضع موطئ قدم في المجال المدروس، كمشروع استعماري، جنت أرباحه ومازالت تجنيه حتى وقتنا الراهن، في مقابل تداعيات ذلك على المنطقة.

الفرنسية سان لوي، لبيع السلعة في أسواقها اقتراحاً منهم لتذليل صعاب الطريق^(٢٧).

ولأجل تطوير نقاشنا هذا، نواصل الحديث في مسألة ثنائية الساحل الأطلسي والصحراء، أي التجارة الصحراوية والتجارة الأطلسية، وتتعلق هذه المسألة بعزم فرنسا لتجاوز التنظيمات المحلية للتجارة الغرب أفريقية، عبر تعطيل وظيفة تجارة القوافل لصالح تجارة السفن، خاصةً وأن هذه الفترة تطورت فيها المواصلات البحرية، منها السفن ذات القوة البخارية القادرة على حمل آلاف المسافرين^(٢٨)، إلى جانب إغراق الأسواق الداخلية بالسلع، عبر خلق قناة للتواصل من السواحل إلى عمق الغرب أفريقي والصحراوي، يسهل من مأموريته العمل مع القوى السياسية المحاربة في المنطقة مثل دوي حسان^(٢٩)، مقابل السعي لإنهاء سلطة الزوايا المرابطين على الاقتصاد الصحراوي^(٣٠)، حيث استغلت فرنسا العلاقة المتوترة بين الطرفين، واشتداد الحروب والتنافس على الأرض وحوزته^(٣١)، إلى جانب أن ازدهار التجارة الأطلسية، كان عاملاً استدرج الإمارات الساحلية بالصحراء من بينها دوي حسان^(٣٢)، ورغم ذلك؛ فإن مهمة الفرنسيين في الاختراق التجاري بدت صعبة، خصوصاً في السواحل الغربية حتى السنغال، لإشكالية تضارب المصالح بين القبائل المؤثرة في المجال عبر وظائفها ونظامها^(٣٣)، ووجهت بذلك أنظارها نحو السواحل الجنوبية للأطلسي، في مجموع سواحل اليوروباً والداهومي والسيراليون وغينيا وغامبيا، وأطلقت عليها تسميات مميزة لنوع النشاط الذي تقوم به، من قبيل تجارة الذهب في ساحل الذهب وتجارة العاج بالنسبة لساحل العاج وتجارة العبيد في ساحل العبيد^(٣٤).

وفي العقد الثالث من القرن التاسع عشر، ألغت بريطانيا تجارة الرقيق باعتباره قراراً وطنياً يلزم الجميع، ويدعوا الدول الأخرى لتطبيقه^(٣٥)، وآتى هذا الإلغاء بعد سنوات من الاستفادة، عبر ما يصلها من السواحل الأفريقية، وأرباحها الطائلة في مستعمراتها بأمريكا على غرار فرنسا، وحينما كانت السياقات الدولية تتغير، فعُلت قرار الإلغاء وأجبرت حواضر غرب أفريقيا على تعطيل تجارة الرقيق، بذريعة أنها ممارسات مشينة، والحال أنها أدركت أهمية تجارة العبيد في النمو

وهكذا، فتأثير فرنسا يتخذ شكلاً آخر، يسلك طريقاً ندرس فيه نوع الخطاب الذي تبنته، عبر ما نلاحظه في إسهامات رحالتها ومستكشفيها، الذين كان فهمهم للمجتمع والمجال الغرب الأفريقي ينطلق من أحكام جاهزة، ومن تصورات مصدرية عربية، على غرار إطلاق حكم اللصوصية والطغيان على جماعات محاربة مثل التوارگ^(٣٦)، لمجرد كونهم من الزعامات السياسية التي وقفت ضد أهدافهم^(٣٧)، ذلك أن مرامي السلطات التي أطرت عملية الاكتشافات، يصب في ما يخص أهدافهم الاستعمارية، لكن في المقابل، لا بد من الإشارة إلى صورة المجال القريبة من الحقيقة، والتي تتجلى في ما قدم بشأنها من خلال أوصاف عقلانية تخص الطبيعة، والفهم الصحيح للحكم لدى بعض الزعامات^(٣٨).

وقد أدى تواجد أوروبا في مناطق معينة من العالم خلال القرن التاسع عشر الميلادي، إلى ظهور ردود فعل قوية، بفعل سياستها الهادفة إلى استعمار تلك المناطق، والتي من بينها أفريقيا، ومنذ عام ١٨٨٥م أضحت هذه القارة مثل كعكة، تم توزيعها بموجب مؤتمر برلين، لتحصل فرنسا على جزء هام، يشتمل على منطقة أفريقيا الغربية *Afrique Occidentale*، أو ما كان يطلق عليه اختصاراً ب: *A.O.F* أي أفريقيا الغربية الفرنسية، وأمام هذا الواقع السياسي، طُرحت ثلاث أسئلة بخصوص استعمار غرب أفريقيا، السؤال الأول يهدف إلى البحث في القيمة الجوهرية للمجال، والسؤال الثاني حدد في البحث في نسب الربح المحتملة من هذا الاستغلال، أما السؤال الثالث فتعكسه إشكالية عبور المجال الصحراوي^(٣٩)، وبهذا كان غرض الدول الأوروبية تحديداً فرنسا، الظفر بالثروات الطبيعية والبشرية، والتأثير على الحركة التجارية، وذلك عبر استيعابها أن التجارة الصحراوية كانت العصب الأساس الذي تسير عليه الحواضر الأفريقية، عبر ما راكمته تقارير الرحالة والمستكشفين من ملاحظات حول مصادر الثروات واتجاهاتها، ونشاط المسالك الرابطة بين الحواضر وحجم التبادل التجاري بين الشمال والغرب الأفريقي، وهكذا، فقد انتبه أحد الأوروبيين لإصرار القوافل المحملة بالصمغ من تنبكت على الذهاب إلى موكادور، في المقابل كان عليهم الانعطاف يساراً إلى المستعمرة

وبالتالي نجد الكتابات الفرنسية دائما ما تحذر في حديثها عن التفوق الإنجليزي^(٤٣).

وتطلق السلطات الفرنسية في غزوها الاقتصادي وتأثيرها على تجارة غرب أفريقيا، من ثلاث مناطق أساسية ضمنت فيهم حضورا كبيرا^(٤٤)، المنطقة الأولى: الجزائر منذ سنة ١٨٣٠م بعد حكم سابق من طرف العثمانيين، المنطقة الثانية: السنغال بفعل الاستقرار الفرنسي في سان لوي، المنطقة الثالثة الكابون والكونكو، مع الإشارة إلى أن الجزائر تعد منطقة مهمة عند فرنسا نظرا لعاملان أساسيان، الأول تمثل في إتصالها بالبحر الأبيض المتوسط، ما سيقصص من تكاليف الإبحار نحو السنغال، والعامل الثاني تمثل في سعيها لتجاوز المغرب، أهم وسيط تجاري بين غرب أفريقيا وأوروبا، وخلق مجالها الاقتصادي، وقد بدت مساعي فرنسا تتضح أكثر في بعض التفاصيل التي تقدم جانبا من جوانب تخطيطها لإدخال تقنيات جديدة، كخطوط السكك الحديدية من مدينة كايي إلى مدينة بافولابي في كيتا وبامكو وإنشاء الموانئ وتنمية أسطولها التجاري^(٤٥).

وكلما تحدثنا عن القرن التاسع عشر الميلادي، علينا أن نكون واعيين بأن هناك مناطق اضطلعت بأدوار هامة، على غرار حاضرة تنبكت المركز التجاري والقطب الاقتصادي، وكلما تقلصت الطرق التجارية الرابطة بينها وبين الحواضر الأخرى، أسهم ذلك في حدوث مشاكل في الإمدادات لباقي المناطق، بفعل الاحتكار التجاري لفرنسا، وذلك عبر إحداثها مراكز خاصة في المحاور الرئيسية، التي تمر فيهما التجارة الصحراوية في دوائر احتلتها مثل البراكنة والترارزة، والحاقهما إلى مالي بمساعدة معاونها كزافي كَبُولَانِي^(٤٦)، ثم ما لبثت أن نهجت فرنسا أساليب أخرى، تمثلت في اختطاف الزعامات الاقتصادية إلى مناطق أخرى، على غرار اختطاف أمير البراكنة أهم فاعل في قطاع التجارة سنة ١٨٤٣م^(٤٧).

أما عن المعاملات التجارية مع غرب أفريقيا، فغالبا ما يستفيد منها الفرنسيون، نظرا لاحتكارهم أهم المواد والسلع التي تملوا قيمتها من قبيل مادة الصمغ، وهذا ما نراه من نماذج في بعض النصوص، نموذج ما أورده

الداخلي لأفريقيا، وتشير بعض المعطيات إلى تدفق أعداد كبيرة منها نحو أوروبا، تحديدا البرتغال منذ بداية العصر الحديث، ومنذ ذلك الوقت حتى القرن التاسع عشر الميلادي، تطورت تجارتهم، لأنها كانت معدة لإعادة التصدير من البرتغال إلى مستعمرات بريطانيا وفرنسا في العالم الجديد، إزاء ما شهدته من تزايد الإنتاج بفعل استخدامهم في الأعمال الفلاحية والصناعية^(٤٨)، هذا في وقت طرحت دراسة العبيد في غرب أفريقيا إشكالات معرفية من زاويتين: أولها مكانتهم كسلعة وعملة متداولة في الوقت نفسه، وثانيها حضورهم الإنتاجي داخل المجتمع الأفريقي، وعلى هذا الأساس يجب أن نميز بين العبيد المسخرين للاسترقاق وللمبادلات التجارية، والعبيد الذين بلغوا درجة اجتماعية معينة، ومكانة اقتصادية وسياسية، ونظرا للطابع الاجتماعي الأفريقي، فقد شكلوا المكون الأساس في الهيكل المجتمعي، وانقسموا إلى عبيد المنازل والنخاسة وأسرى الحرب وعبيد الدولة^(٤٩).

ومن أوجه التأثيرات الأخرى، تضرر التجارة في المناطق المجاورة لتبكت، بفعل استغلال فرنسا صلاتها المثينة مع الأمراء والأعيان، وعقد المعاهدات التجارية كما وقع في بلاد البيطان؛ إذ أفضى ذلك لتأجيج الصراع والحروب، بين الداعمين للأطماع الفرنسية والرافضين لها^(٥٠)، ومن المعاهدات التجارية التي عقدتها فرنسا مع إمارة الترارزة، تلك التي حصلت بموجبها على الصمغ والعبيد والذهب^(٥١)، وبهذا تتأصل تأثيرات فرنسا بالمنطقة في الفترة الحديثة، حيث اكتست طابعا يهدف إلى تعيين عملائها في التجارة لكسر الوجود الإنجليزي^(٥٢)، ثم إن الخطر الذي ظل يورقها تمثل في قوة الزوايا في المجال، وقامت بذلك على التحريض على طعن زوايا شربية أثناء حربهم مع المغافرة، وكانت نتيجة ذلك أن قُتل إمامهم القاضي عثمان سنة ١٦٧٤م^(٥٣)، والإسهام في انقسامات بين الزعامات بخصوص استمالة عملاءها أحد منافسي أمير الترارزة، بشأن قافلة الصمغ المتجهة إلى تجار إنجلترا سنة ١٨٢٢م، وتسبب الأمر في مقتل الشخص المرسل على يد آخر يدعى المختار بن سيدي^(٥٤)، ويبدو بهذا أن فرنسا تكون محرجة بخصوص ما عرفته تجارة إنجلترا من تطور،

خاتمة

في نهاية هذا العمل نكون أمام خلاصات، حول تداعيات الوجود الفرنسي على الاقتصاد التجاري في غرب أفريقيا خلال القرن التاسع عشر الميلادي: أولها أن الحركة التجارية الفرنسية التي شهدتها الغرب الأفريقي، قد وجهت علاقة الغرب الأوروبي بأفريقيا، وأنتجت صراعا اقتصاديا ما بين التنظيمات المحلية التقليدية والبنيات الأوروبية المتطورة؛ ثانيها أن ذلك الصراع خلق تحولات في المشهد الاقتصادي في المنطقة، على مستوى العلاقة داخل الحواضر التجارية الصحراوية، وأحدث شرخا بين الداعمين للتعامل مع الفرنسيين والرافضين له، ثم سعت فرنسا إلى الاستحواذ على أهم مواد المنطقة، على غرار العبيد، كونهم أساس الإنتاجية في اقتصاد أوروبا.

الباحث ناعيمي بخصوص فقرة تقريرية، تبين الاستفادة الكبيرة للأوروبيين من معاملة تجارية، وهذا نص التقرير: "يأتي الزنوج بالجلد والعاج والأسرى وفي بعض الأحيان بالعنبر أما الصمغ فأتينا من المورين، ونعطي بذله لهؤلاء...» النسيج والقطن والنحاس والقصدير والحديد والعرق "ماء الحياة"...» العائدات التي نحصل عليها من التجارة تقدر ب ٨٠٠%...» وبذلك تكون النفقة أقل في الشراء منها في النقل"^(٤٨)، وتأثرت المعاملات التجارية في المنطقة، بإدخال الفرنسيين أساليبهم في التعامل بالنقود المعدنية، حيث لم ترق لهم التعاملات التي تحدث عن طريق المقايضة، وتبديل السلع ببعضها البعض، مثل مبادلة الملح بالعبيد، أو هذا الأخير بالأسلحة، وقرروا التأثير على بعض المستعمرات نموذج سان لوي السنغالية، فأصبحت هذه الأخيرة تتعامل بالعملة الفرنسية^(٤٩)، تحت حجة عدم توافق القيم التسويقية والمادة الخام المعروضة، وانتشرت هذه الأساليب في مناطق أخرى، مثل الداهومي (البنين الحالية) التي تواصل فيها البيض والسود، ما سهل انتشارها^(٥٠).

إجمالاً يمكن التوصل إلى أثر الدول الأوروبية تحديدا فرنسا، على تجارة غرب أفريقيا خلال القرن التاسع عشر، وذلك إزاء عوامل وسياقات دولية وجهتها في سبيل مصالحها الاقتصادية والسياسية، ما انعكس سلبا على التجارة القفلية لصالح تجارة السواحل.

الاحالات المرجعية:

- (١٩) من بين هذه الدراسات نجد: سليمان بشير ديانبي وجان لو أمسيل، **أفريقيا أمقا للفكر في مسألة الكونية وما بعد الكولونيالية**، ترجمة فريد الزاهي، ط. ١، دار معنى للنشر والتوزيع، ٢٠٢١م. جيرار لكرك، **الأنثروبولوجيا والإستعمار**، ترجمة جورج كوترة، الطبعة. ٢، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٩٠م. أشيل ميمبي، **نقد العقل الزنجي**، ترجمة طواهي ميلود، ط. ١، بيروت، دار الروافد الثقافية ناشرون، ٢٠١٨م. رحال بوبريك، **"الإسلام بإفريقيا الصبورة التاريخية وأنماط التدين بغرب أفريقيا"**، في: ندوة أفريقيا كأفق للتفكير، التي نظمتها أكاديمية المملكة المغربية في الدورة ٤٣ بالرباط أيام من ٨ إلى ١١ جينر ٢٠١٥م.
- (٢٠) بينما نظرة الأفرقي تجلت في الحفاظ على الخصوصية المحلية والمجتمعية والحضارية لأفريقيا، مع تبني خطاب مصاد للفكر الاستعماري، ذلك أنه ينتقد فيه سعي الأوروبي لنشر ذلك الفكر في التربة المحلية، ونظرة الأفرقي تلك يعكسها حضور جانباً من النقد الموجه من طرف الأنثروبولوجيا للكتابات الإستعمارية، خاصة في بداية الثلاثينيات من القرن الماضي، في سياق ظهور ما سمي بالقومية الأفرقية، وإرادة الأفارقة في التأكيد على حقوقهم وعلى مسؤولياتهم إزاء النظام الاستعماري، أثناء فترة ما بين الحربين العالميتين. ينظر: جيرار لكرك، **الأنثروبولوجيا...**، م. س. ص. ١٦٨.
- (٢١) رحال بوبريك، **"الإسلام بإفريقيا الصبورة التاريخية وأنماط التدين بغرب أفرقي"**، ضمن: ندوة أفريقيا...، م. س. ص. ٢٦٩.
- (22) Philebert Charles, **La France en Afrique et le Transsaharien**, Paris, éditeur Librairie Algérienne et coloniale, 1890, P. 7.
- (٢٣) التوارك هم قبائل مطارية ذات شوكة وتاريخ وتقاليد، معروفين في الصحراء الكبرى، بحكم نمط عيشهم القائم على البداوة والترحال، ليس لهم منازل يأوون إليها، يوفرون الأمن للقوافل التجارية والحجبة، إلى جانب احتكارهم بيع الجمال للتجار الطائرئين في المجال، وفي المقابل، يفرضون إتوات المرور، ويجبرون القبائل الأخرى على احترام حوزتهم على تنبكت. يُنظر كل من: المختار بن حاميد، **حياة موريتانيا حوادث السنين أربعة قرون من تاريخ موريتانيا وجواره**، البطالة ٢، ص. ٧٧.
- (24) John Manuel, **Le Soudan : Ses Rapports Avec Le Commerce Européen**, Paris, Imprimerie De E. Martinet, 1871, P. 4.
- (٢٥) يُنظر: P. Charles, **La France en Afrique...**, Op. cit, PP. ١١-١٣. كون دراسته مهمة في تتبع قضايا تختلف قراءتها في مساهمات أخرى.
- (26) P. Charles, **La France en Afrique...**, Op. cit, P. 10.
- (٢٧) دانييل شروتر، **تجار...**، م. س. ص. ٢٠٧.
- (٢٨) محمود بن محمد، **المجتمع البيضاني في القرن التاسع عشر (قراءة في الرحلات الاستكشافية الفرنسية)**، ط. ١، الرباط، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، ٢٠٠١م، ص. ٨٦.
- (٢٩) قبيلة عربية هاجرت من المشرق إلى بلاد المغرب خلال القرن الرابع عشر الميلادي، وأحدث دخولها تحولات في الخريطة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.
- (٣٠) مصطفى ناعمي، **الصحراء من خلال بلاد تكتة تاريخ العلاقات التجارية والسياسية**، منشورات عكاظ، ١٩٨٨م، ص. ١٦.

- (١) تطلق تسمية بلاد الحوسة على تلك المناطق الواقعة شرق نهر النيجر، أي دولة النيجر الحالية.
- (2) Filix Dubois, **Tombouctou La Mystérieuse**, Librairie E. Flammarion, Paris, 1897, P. 13.
- (3) Oscar. Lenz, **Timbouctou Voyage au Maroc au Sahara et au Soudan**, Librairie Hachette, Paris, 1887, Tom. 2, P. 370.
- (4) Augustin-Prosper Hacquard, **Monographie de Tombouctou**, Société des études Coloniales etmaritimes, paris, 1900, P. 48.
- (٥) دانييل شروتر، **تجار الصبورة المجتمع الحضري والإمبريالية في جنوب غرب المغرب ١٨٤٤-١٨٨٦**، تعريب خالد بن الصغير، ط. ١، الرباط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مطبعة النجاح الجديدة، ١٩٩٧م، ص. ٧٠.
- (6) O. Lenz, **Timbouctou Voyage...**, Op. cit, Tom. 2, P. 370.
- (7) F. Dubois, **Tombouctou...**, Op. cit, P. 13.
- (8) Ibid, P. 89.
- (9) O. Lenz, **Timbouctou Voyage...**, Op. cit, Tom. 2, P. 298.
- (١٠) الحسن الوزان، **وصف أفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ط. ٢، بيروت، دار الغرب الإسلامي، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، ج. ٢، ١٩٨٣م، ص. ٢٤١.
- (11) Zahra Tamouh, **Le Maroc et Le Soudan Au 19 Siécle (1830-1894) Contribution à Une Histoire Inter-Régionale De L'Afrique**, Thèse Pour Le Doctorat De 3ème Cycle, Université De Pantheon-Sorbonne (paris-1) Centre de Recherche Africaines, Tom. 2, P. 184-185.
- (12) Ibid, P. 188.
- (١٣) جني: حاضرة في غرب أفريقيا، تقع جنوب تنبكت.
- (١٤) أحمد إلياس حسين، **"سلة التجارة الصحراوية"**، في: ندوة التجارة عبر الصحراء، أعمال الندوة التي نظمها مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، أيام ٤/٣/٢ أكتوبر ١٩٧٩م، طرابلس، ١٩٧٩م، ص. ٢١.
- (15) Réne. Caillié, **Journal d'un voyage à Temboctou et à Jenné dans l'Afrique centrale**, Paris, L'Imprimerie Royale, Tom. 2, P. 200.
- (16) O. Lenz, **Timbouctou Voyage...**, Op. cit, Tom. 2, P. 166.
- (17) Ibid, P. 374.
- (١٨) مجهود شخصي على مستوى رسم الخريطة، واستثمار المصادر المدروسة، ومن المصادر التي استعنت بها: خالد أوشن، **النشاط الاقتصادي في النيجر الأعلى من سنة ١٢٣٠م إلى سنة ١٥٩١م**، أطروحة تيل دكتوراه (النظام الجديد)، جامعة محمد الخامس الرباط، ٢٠٠١-٢٠٠٢م، ص. ٥٧١-٥٧٢، ومجموعة من الخرائط المرفقة في الأطروحة، خاصة الخريطة ص. ٧٦ ونفسها في الأصل منقولة (بتصرف) من:
- Raymond Mauny, **Tableau Géographique De L'Ouest Africain Au Moyen Age**, d'après les sources écrites, la tradition et l'archéologie, Smithsonian Institution Libraries, 1961, P. 512.

- (٣١) الخليل النحوي، **بلاد شنقيط المنارة والرباط، تونس**، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٨٧م، ص. ١٠١.
- (٣٢) مصطفى ناعمي، **الصحراء...**، م. س، ص. ١٦٢.
- (٣٣) خضعت القبائل الصحراوية لدراسة من طرف الباحثين في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي، فوضعوا مقارنة بين حضورهم ونظامهم المعيشي، القبلي القائم إما على العلم أو الحرب أو اللحمة أو البحر، وتوصل الأستاذ الباحث محمد بوزنكاش، عبر دراسته للزوايا وحسان، إلى حضور نموذجين ثقافيين مختلفين يقوم الأول على (التَّزَاوِيَتْ) كنظام أخلاقي ذو مرجعية مرابطية صنهاجية، أما الثاني فيقوم على ثقافة عربية لها حضور في فيافي المغرب الأقصى. يُنظر: محمد بوزنكاش، **دراسة في التاريخ الاجتماعي للصحراء الأطلسية ما بين القرنين ١٧ و ٢٠**، ط. ١، مركز الدراسات والأبحاث "مشاريع"، أسا، ٢٠١٢، ص. ٧٢.
- (٣٤) عبد الله عبد الرزاق إبراهيم وشوقي الجمل، **تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر**، ط. ٢، الرياض، دار الزهراء للنشر والتوزيع، ٢٠٠٢م، ص. ٥٣.
- (٣٥) ج. هوبكينز، **التاريخ الاقتصادي لأفريقيا الغربية**، تقديم محمد عبد الغني سعودي وترجمة أحمد فؤاد بلع، الإسكندرية، المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٨م، ص. ٢٢٧-٢٢٨.
- (٣٦) المرجع نفسه، ص. ١٧٨-١٧٩.
- (٣٧) خالد أوثن، **النشاط الاقتصادي...**، م. س، ص. ٩٣٣-٩٣٤.
- (٣٨) الخليل النحوي، **بلاد شنقيط...**، م. س، ص. ٣٢٠.
- (٣٩) مصطفى ناعمي، **الصحراء...**، م. س، ص. ١٦٣.
- (٤٠) المختار بن حامد، **التاريخ السياسي**، ط. ١، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٠م، ص. ٢٢٦.
- (٤١) المرجع نفسه، والصفحة نفسها.
- (٤٢) المرجع نفسه، ص. ٢٢٧.
- (43) P. Charles, **La france en Afrique...**, Op. cit, P. 20.
- (44) Ibid, P. 3.
- (45) P. Charles, **La france en Afrique...**, Op. cit, P. 35.
- (٤٦) المختار بن حامد، **التاريخ السياسي...**، م. س، ص. ٢٢٨.
- (٤٧) الخليل النحوي، **بلاد شنقيط...**، م. س، ص. ٣٢٠.
- (٤٨) مصطفى ناعمي، **الصحراء...**، م. س، ص. ١٦١.
- (49) O. Lenz, **Timbouctou Voyage...**, Op. cit, Tom. 2, P. 371.
- (50) L. Brunet & L. Giethlen, **Dahomey et Dépendances, Historique Général, Organisation, Administration, Ethnographie, Productions, Agriculture**, Augustin Challamel, Paris, 1900, P. 446.